٢ ـ الحجة الكونية

والأدق أن نقول الحجج الكونية لأنها على أنواع ، أشهرها ثلاثة ،

١ ـ حجة الحركة، ٢ ـ حجة الممكن والواجب، ٣ ـ حجة العلية والعلية الأولى.

فلنأخذ في بيانها بايجاز،

حجة الحركة والمحرك الأول

وهذه الحجة ترجع إلى أرسطو وذكرها ابن سينا وابن رشد وغيرهم وصاغها القديس توما الأكويني (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤) كما يلي ، من البين كما يشهد ذلك الحس ، أن بعض الأشياء في العالم متحركه، وكل ما هو متحرك فهو متحرك بغيره. ومن المستحيل أن يكون الموجود محركا ومتحركا بنفس الطريقة ومن نفس الاعتبار، أعني أن يحرك ذاته وأن ينتقل بذاته من القوة الى الفعل ، وإذن فإن كان الشيء متحركا، فيجب أن نقول إنه متحرك بغيره. فإذا حدث بعد ذلك أن تحرك الشيء المتحرك بدوره، فلا بد أن يكون متحركا بغيره، وهذا الأخير بآخر أيضا، لكن لا يمكن السير إلى غير نهاية، لأنه لن يكون ثم حينئذ محرك أول، وسينتج عن ذلك أيضا أنه لن يكون ثم محركون آخرون (أو محركات أخرى)، لأن المحركات الوسطى لا تحرك إلا إذا حركها المحرك الأول ، مثل العصا لا تحرك إلا إذا حركتها اليد . فمن الضروري إذن الوصول إلى محرك أول لا يحركه محرك آخر، وهذا المحرك الأول هو الله.

وينبغي أن تفهم الحركة هنا بكل معانيها ، حركة النقلة ، حركة الكون والفساد ، حركة الاستحالة ، وحركة النمو والنقصان ، فهي التغير بوجه عام.

ـ حجة الممكن والواجب

أول من قال بها الفارابي ، وعنه أخذها ابن سينا ، فصاغها في كتاب النجاة ، بقوله ، ولا شك أن هنا وجودا . وكل وجود فإما واجب ، وإما ممكن . فإن كان واجبا ، فقد صح وجود الواجب ـ وهو المطلوب . وإن كان ممكنا ، فإنا نوضح أن الممكن ينتهي وجوده إلى واجب الوجود .

ويقوم هذا البرهان على مقدمتين هما أساساه ، الأولى أن الممكن يمكن أن يكون وألا يكون ، بعكس الواجب وهو ما لا يمكن ألا يكون . والثانية أن الممكن لا يستمد وجوده من ذاته ، أي من ماهيته ، بل من علة فاعلية هي التي تمده بالوجود وهذا بدوره يفترض أمرين ، الأول أن الوجود يتميز من الماهية ويضاف إليها ، والثاني أنه لا يمكن الصعود في سلسلة العلل الفاعلية إلى غير نهاية.

حجة العلية والعلة الأولى

وترجع إلى أرسطو في إبطاله التسلسل إلى غير نهاية في سلسلة العلل بأنواعها الأربعة ، المادية ، والصورية ، والفاعلية ، والغائية.

وخلاصتها كما يعرضها القديس توما أننا لو نظرنا في المحسوسات لوجدنا فيها نظاما من العلل الفاعلية. كذلك نلاحظ أننا لا نعثر على موجود هو ، غائية لذاته . ولما كانت العلة بالضرورة سابقة على المعلول ، فإن الموجود الذي سيكون علة ذاته يجب أن يسبق ذاته ، وهذا مستحيل . ثم إنه من المستحيل الصعود إلى غير نهاية في سلسلة العلل الفاعلية المرتبة . فكما هي الحال في العلل المحركة وأنها مرتبة بحيث أن الأولى علة محركة للثانية ، والثانية للثالثة ، وهكذا، فكذلك الحال في العلل الفاعلية ، كل واحدة منها علة في التي بعدها ، وهكذا ، وسواء أكانت العلل الوسطى التي تفصل العلة الأولى عن الأخيرة واحدة أم كثيرة . وفي كلتا الحالتين، وأيا ما كان عدد العلل الفاعلية الوسطى ، فإن العلة الاولى هي العلة في آخر معلول ، حتى إننا لو ألغينا العلة الأولى ، فلن يكون ثمّ علل وسطى ولا علة أخيرة ولا معلول أخير . لكننا نلاحظ أن في العالم عللا وسطى و معلولات . فمن الواجب إذن الاقرار بوجود علة أولى هي التي يسميها الناس جميعا باسم ، الله

وكما هو واضح هنا ، يقوم البرهان على أساس استحالة التسلسل إلى غير نهاية في سلسلة مرتبة من العلل والمعلولات ، وضرورة التوقف عند علة أولى ، هي علة العلل .